

الشيخ في سبر أبطاله

٢ - ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الحفيف

اتخذ ميرابو كرسيه وسط العامة ، وقد تهاس الأشراف عند دخوله المجلس ونحاطبوا بالأحداق ، على أنه كان يزدرهم أكثر مما يزدرونه ، وبمقت في أشخاصهم الهدم القديم ونظمه وتقاليده ودخل الملك القاعة في حاشيته التي تجلى فيها ترفع الملكية واستكبارها ، وأتى على النواب خطاباً ارتاحوا إلى ما جاء فيه من أمانى ، وهتفوا لما تضمنه من عبارات المعطف ، ثم قام نكراً كد رؤوس سامعيه بخطاب طويل نصفه أرقام !

تبع الأشراف والقساوسة الملك إلى خارج القاعة وبق العامة في أماكنهم وبينهم ميرابو يشيع الملك ووزيريه بنظرات المقت والسخط . ولقد رأى النواب في ملامح وجهه أنارات الغضب ، ونسرها الأشراف بأنها مظاهر الحقد الدفين والغل الشخمي ولكن ميرابو أصبح اليوم غيظه بالأمس فلقد ودع حياة السفه والتمرد ، وأصبح السياسي التزن الهيب الجانب ، الذي يتوقف مصير الحوادث على ما يصدر عنه من قول أو فعل

إنه لا يطمئن إلى المستقبل ويرى الأمور تنذر بالكارثة ما لم تعالج بالحكمة . ولقد درس نفسية الشعب خارج المجلس وعرف أن له أطباعاً لا بد من تحقيقها . لم يكن الناس يريدوا أن تؤخذ الأسوات في المجلس باعتبار الطبقة فيفوز المتوازن ، ولا يكون لساواة العامة إياهم في السدد أية قيمة . وكان الشعب ونواب الشعب يلحون في أن يكون التصويت باعتبار الرؤوس . كذلك كان الشعب يطمح أن يكون للمجلس مكان مستديم في النظام الحكومي ، ويكون لما يصدر من آراء أثر في سياسة الدولة . وكان ميرابو يسعى جهده في أن تمن الحكومة موافقتها على ذلك في أولى جلساته خشية أن ترغم على ذلك فيما بعد فيؤثر ذلك أسوأ الأثر في مجرى الحوادث ، ولكن الحكومة أغفلت الأمر ، فكان محقاً في حنقه وتبرمه

كان يظن ميرابو أكثر مما يظن غيره إلى انبعاث الشعب واحتضار الملكية . وكان يرى الملكية وقد أنفلتت تقاليد الماضي تكاد تسقط من الأعياء ، حتى لقد قيل عن لويس السادس عشر إنه ورث عن آباءه الثورة والعرش معاً . ولقد كان هذا الملك المسكين يهرول قاذو ليدرك الزمن فتقطع به الأسباب ، ثم يكاف الأيام ضد طباعها حيناً فتسخر منه الأيام . وكان ميرابو يرى بنافذ

وكان الملك قد أخذ بنصيحة نكر حين اشتدت الضائقة . المالية فأجاب الشعب إلى دعوة مجلس طبقات الأمة إلى الاجتماع وهو مجلس قديم شهدت فرنسا آخر اجتماع له عام ١٦١٤ ، وقد حدد لاجتماعه اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٨٩ ، وكان الغرض من اجتماعه ، مشاورة نواب البلاد في مخرج من الأزمة المالية

ولكن هل كانت الضائقة المالية كل ما يشكو منه الشعب ؟ كلا ؛ إن فرنسا إذا أردنا الواقع كانت على أبواب عصر جديد ، بل إن تاريخ العالم كان في مستهل فصل جديد ؛ فما كانت الثورة مهما اختلفت مظاهرها إلا أوبة الشعب من غمر القرون أو من مجاهل النسيان ، كانت حركة لا محيص منها ، حركة أدى إليها تطور الزمن على وجه معين بحيث لم تكن الأيام لتلد غيرها

ها هو ذا الأفق الباسم تنشق جوائبه عن جبين الصباح بعد ليل طال واشتدت حلكته ، ولكن ما تلك الخطوط الحمراء التي يراها ميرابو ويوجس في نفسه خيفة منها ؟ إنه يرى فيها نذير الشر والفرع الأكبر : ياله من رجل هيب ! إنه يتشامد والقوم متفائلون ؛ إنه يرى ما لا يرون ، ولكن لينتظر ما تأتي به الأيام !

الشعب مبهج بيسم له الأمل ابتسام الربيع من حوله ، أنظر إليه غداة لافتتاح المجلس في طريق نوابه تكاد تنشق حناجره وتدى أكنفه من كثرة ما بهتف وما يصفق . ياله ! ما له بطرق في وجوم كلما مر به أحد السادة من النبلاء أو القساوسة ؟ هل آن لتلك الجوع أن تفرض سلطانها ونجبر القوم على الاعتراف بها ؟ من ذلك الرجل المابس الهيب الذي تتناقل الألسن اسمه وتتدافع الجوع لرؤيته ؟ انه بعينه نائب كس الكنت ميرابو !

وهو لا يثق في نواب السامة ، ويخاف أن يؤدي نزاعهم إلى الكارثة . قال يصفهم ذات يوم : « أكثر من خمسمائة عضو لا يعرف الرجل منهم جاره ، أتوا من جميع المملكة ، لا يجمعهم نظام ، ولا يلم شملهم زعيم ، ولن نجد ذا نفوذ ، أو تبيين فهم من يأخذ نفسه بأى ميثاق من موا الطاعة ، وكلهم ميال إلى أن يُصنئى إليه قبل أن يع هو إلى أحد . . . »

أرأيت موقفاً أشد من هذا الموقف حرجاً ؟ ولكن كان حرج الموقف يعنى بصيرته عن سبيل الرشاد ، أو السام إلى قلبه ؟ كلا فلا خلاق مثله إلا للشدائد ، وما يظهر أكثر ما يظهر إلا فى اللغات . وهل كانت تستطيع السفينة تحير بلا ريان فى مثل تلك الأنواء ؟ ومن ربانها إن لم هو ربانها ؟ لم تمض أيام حتى صار بين نواب العامة للقدم عليهم يستقيمون على ما يرسم من طريقة وإن لم يملأوا زمامته لم ويتجهون بأنظارهم إليه إن سدت فى وجوههم السالك لم يظهروا له ما هو جدير به من عطف وعجبة ، ولكنه كأخبر لم يكن لينصده عن مصلحة وطنه ما ينال شخصه من إهانة ، ذلك من سر عظمة الرجل ما هو جدير بالاعجاب

وكان إلى جانبه الأب سيس ، ينقل إلى نواب العامة ما يؤد إليه ، وكان هذا الرجل قد آثر صفهم على صفوف الأشراف فعل ميرابو من قبل ؟ وكان لشخصه فى قلوبهم مكانة قوية الحب ، إن لم يكن قواها بالاعجاب

أخذ الأشراف ورجال الدين يجتمعون كل طائفة فى حجرة وعولوا على أن يكون أقرار المسائل باعتبار الطبقة ؛ ولو طأوا العامة إلى ذلك لكان للثورة اليوم سيرة غير سيرتها . ولأنى للعامة أن يقرروا على أنفسهم عملاً يطوى بهم القرون الراء ، وهم يتمجلون الزمن ، ويودون لو يسبقونه إلى نعمة الأمل الوليد ؟ هل أنهم ما كانوا يريدون بملكهم العايب ثراء ذلك اليوم ، ولكن شطط رجال البلاط وسوء تدبيرهم سيحب من هذا المجلس هيئة تغلب نظام الحكم فى فرنسا ، بل وثق تاريخ البشر إلى طريق جديد

وما كان ميرابو ليرضى أن يطيع أصحاب الامتياز

بصره أن السامة الملكية وسلامة الوطن كلتاها تتوقف على التوفيق بين الملك والشعب ، ولا سبيل لنجاح الثورة غير هذا السبيل أرسل إلى فكر يقول له : « صدقتى أيها الوزير أن مصير الملكية فى فرنسا متوقف على ما سيكون من أمر هذا المجلس ، وخير لك ولحقا البلد المسكين أن تواجه المجلس بما يحقق أمانى الشعب » ولقد أعد ملتصقا ليتقدم به إلى الملك فى الجلسة الأولى ؛ ويقال إن الملك بادى إلى الخروج عقب انتهاء الاجتماع لما علم من عزيم ميرابو . ومما جاء فى هذا اللتمس : « أضف إلى ما ترك أيها الأمير المظلم إجابة الشعب إلى رغبته يبق الصولجان فى يدك ، فأننى أخشى إن رفضت أن يشهر فى وجهك . »

بالهذا الرجل من بطل ، كيف ينقلب سلوكه هذا الانقلاب الدهش ؟ إن المرء ليلس أم ناحية من نواحي عظمتة فى ذلك التحول ، وما عرف التاريخ قبله رجلا درج من مثل ماضيه فوصل إلى مثل ما أتبع له من مجد وعظمة وكال سياسى كان منطق الحوادث يقضى بأن يرى ميرابو فى الثورة فرصة لشموه وإنه ومرتهما لمآربه ، فيصبح فى غمرتها الرجل الأحمق الذى يهدم ولا يعرف غير الهدم ، ويبطش ولا يستطيع أن ينهض لنير البطش . ولكنه ما عرف الهدم ، وما كان رائده سوى البناء كأحسن ما يكون البناء ؛ وذلك لعمري من هجائب الأيام ؛ ولكنه سر العبقريّة

أجل ؛ لقد جد الزمان فأنار جلال الموقف كامن مواهبه ، ولأمس موضع العظمة من قلبه ، ورأى فى الثورة حادثاً نبه نفسه إلى حقيقة لها ، أو قل إنه وجدها كفوؤا له كما وجد نفسه كفوؤا لها وسرى أن جهاده منذ اليوم سيكون شاقاً صريحاً ، فإن من يمنهم أمر الوطن من الوزراء ورجال الدولة من أمره فى رغبة ، لا يأمنون أن يتخذ من حرج الأمور وسيلة إلى أغراضه الخاصة كما كانوا يزعمون ، بله ما كانوا يضمرونه له من حقد وما كانوا يكتنونه من حسد ، حتى المستنيرين من معارفه ومقدراتى نبوغه لم يكونوا أقل من هؤلاء حذرا منه ، وكانوا فوق ذلك يترفعون فى صاف عن مدارس رجل له مثل ذلك الماضى ؛ مما كان يملأ قلبه غيظاً . والملك ؟ أيستطيع أن يصل إليه وله من بطانته أسوأ حجاب ؟

« أن نفوذ الملك وحقه في (الثبوت) لا بد أن يكون أمراً أساسياً في الدستور ، وبغير ذلك فإنه يفضل أن يقيم بالقسطنطينية على أن يعيش في فرنسا ، لأنه لا يرى أخطر من تسلط سبتانة رجل على شؤون الدولة »

ولقد ذاعت الاشاعات يومئذ أن ميرابو أخذ من الملكة مبلغاً طائلاً ، وهكذا يأتي شؤم طالعها إلا أن بلازمه فيرمى بالخطيئة منذ ذلك التاريخ الباكر

اعترز الملك نقض قرارات الجمعية ، وعول على الذهاب بنفسه إليها ، وحدد لذلك اليوم الثالث والعشرين من يونيو ، وفي صباح اليوم العشرين من ذلك الشهر حين لم يستطع نواب الشعب الاجتماع في دار الجمعية بحجة إعدادها لدخول الملك فقد توجهوا إلى ملعب التنس المجاور لها ؛ وهناك وقد أخذ الخامس من قلوبهم كل ما أخذ أقسموا أنهم لن ينفذوا حتى يعضوا الأمة دستوراً ، فكان هذا أحد أيام فرنسا المشهورة

مال للسفينة همل تسخر بالأنواء وتستخف بما يحيط بها من موج كالجيلال ؟ أدر الدقة ياربها ليس لها غيرك بوجهها إلى شاطئ السلامة !

دخل الملك في اليوم الموعد ، وقد تكلف أكثر ما يطابق من الجهد والحزم ، وأعلن نقض قرارات ١٧ يونيو ، وأمر أن تجلس كل طبقة على انفراد ليكون صدور الأصوات بالجلس لا بالزئوس ، وعلى الجميع أن يصدعوا بما يؤمرون وإلا فإنه « سيعمل ما تقتضيه مصلحة البلاد معتبراً نفسه نائبها الوحيد » طرب الأشراف ومن يشابعونهم من رجال الدين لذلك الوعيد ، وقاموا إلى مجلسهم بمد مبارحة الملك القاعة ، وبقي نواب العامة في مكانهم جامدين . أخفتهم الحيرة فلا يدرون ماذا يفعلون ، واستولى الرعب على أفتدسهم ، فدل وجوههم صفرة كشيبة ، وفي عيونهم دهشة ومسكنة ، ولكن ميرابو لم يخلق الفزع مثله ، فوثب من مكانه وفي عينيه الواحشتين نظرات الليث ، وراح يزأر فيهم مذكراً لإيام بقسمهم . فأعاد إلى قلوبهم الحمية ، ثم دار بعينه فاذا كبير الأمتاء يسأل النواب في صلف : « ألم يسمعوا أمر الملك ؟ » وفي تلك اللحظة الرهيبة التي ولدت للعالم عصراً جديداً يأتي القدر إلا أن يجفل من ميرابو ترجمانه ، فيصرخ في رسول الملك قائلاً : « نعم أيها السيد ! سمعنا ما أوعز إلى الملك

نهم الشائن وإن كان يخشى أن يؤدي احراج العامة واعانتهم التذمر فالمجوم ، فيتدخل الملك وهو لا يريد أن يتدخل إلا بما يرضى الشعب ؛ هو لا يحب أن تبغى إحدى القوتين الأخرى ، ولذلك فهو يسمى وبواصل السمي ، ويدعو ويكرر نغوى إلى الأناة ، حتى يصيح له من صفوف العامة رجل سيد لم يكن سوى سيس ، وسرعان ما يأخذ العامة بتصيحته ، لسان سيس ، فيقفون من الأشراف موقفاً حكماً هو انتهاز سياسة السلبية ، فيأبون أن ينتخبوا لهم هيئة داخلية تشعر ول انمزال مجلسهم ، كما يرفضون أن يتسلموا الرسائل الموجهة لهم باسم رجال الطبقة الثالثة

كان يرجو ميرابو أن يخرج العامة من المأزق دون شعناء الاعتداء ، ولكن العامة انتظروا حتى ولوا الانتظار ، فاترح بهم قرب نهاية مايو أن يرسلوا إلى رجال الدين ، وقد أنس ، فئة منهم النطف على السامة ، يدهونهم باسم الله وباسم إنسانية والسلام أن ينضموا إليهم

وفي اليوم العاشر من يونيو أقرح سيس ارسال دعوة نهائية لرجال الطبقتين يطلبون انضمامهم إلى صفوف العامة ؛ وسواء بلوا الدعوة أو لم يقبلوها يجتمع نواب العامة وحدهم للعمل باسم لشعب الفرنسي كله . وأخيراً حين رفض رجال الطبقتين دعوة لعامة أعلنوا في اليوم السابع عشر من يونيو قراراتهم الخطيرة أنهم لم « الجمعية الأهلية » تخطوا بذلك أول خطوة نحو الثورة

أشفق ميرابو وقد فهم مغزى هذا القرار على الجمعية وأيقن أن الملك لا بد مجيب على ذلك بضربة حاسمة ، إذا ما الذي يمنعه أن يباغتهم بمرسوم يحمل به المجلس كله ؟ ولذلك فقد احتاط للأمر وتوق الخطر قبل حدوثه . فتقدم إلى الجمعية باتراح قبلته وأعلنته ، ومؤذاه أن نواب الأمة يقررون أن الضرائب القاعة غير شرعية ، ولكنهم لا يمانعون في جمعها مادامت الجمعية منهقدة ؛ وكانت هذه خطوة سديدة موفقة من جانب ميرابو

على أنه ظل يحسب للموقف حسابه . فما كان الاشراف ورجال البلاط ليقابلوا عمل الجمعية بالسكون ، وكان ميرابو قد واجه ثورة النواب في نقاشهم قبل أن يطلقوا على جميعتهم ذلك الاسم ، وطالب إليهم أن يبحثوا عن اسم آخر لا يتضمن مثل ذلك التحدي ، ولكنهم أعرضوا عنه فلم يجبن عن أن يعلن فيهم

تفصيل كتاب :

الحاكمون بأمرهم

LES DICTATEURS

تأليف مالك بانقيل

بمناسبة وفاته في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للاستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

تمت

طاف بنا بانقيل في النصف الأول من كتابه بطلاقة التنا
ليقدم إلينا طغاة العصر الحاضر ؛ فنحن الآن في روسيا القيصرية
حيث الشعب يجرى قياصرته الارهاق الفظيع بالارهاب الأبدى
وإن تعجب فاعجب لهذا القدر الساخر الذى جعل من آ
القياصر حبيبا للشعب أكبر صرعى الارهاب وهو القيصر
« نقولا الثانى » ^(١) . نشطت الشرطة فى أعقاب ذلك المصير
ولكن نشاطها كان متجها نحو (الانفار) لانحو القادة ، فنجا
طفليها ادعاء جهنمي « كفالديمير أو بيانوف » أولئك الذين ج
شعارهم « كل شيء ، أو لا شيء »

نقى الفتى — بل الأستاذ — فالدمير سنتين فى سيبيريا ،
سنة ١٨٩٦ أنف جمية الكفاح ، وفى سنة ١٩٠٣ افتتح مؤ
بروكسل للعمل ، وعقب ذلك أنشأ فى لندرا حزب العمال الرو
الديمقراطى

وفى سنة ١٩٠٥ اندلع الحبيب الحرب بين اليابان وروسيا
فكانت فرصة فادحة ، فشى إلى قصر الشتاء مائتا ألف من ال
يحدوم قسيس ليقدموا إلى سدة القصر ملتصقات متواضعة
ققابهم المدفعية بالنار على عتباته ، وكان أركان الامبراطور
الأربعة كانت فى الانتظار ، إذ شجرت القلائل فى كل ناحية وذ
الغرائدوق مرج ، وساد الاضراب فى أرمينيا وبولونيا وسيسندو
وعبر والدعبر — لينين — الحدود ليجتبي فى موسكو ، وليؤا

(١) راجع مذكرات بالدولوج سفير فرنسا السابق فهى من أراء
ما كتب من هذا القيصر العظيم وهى مصرجة

بالقائه علنا « لست أنت ، ولم يكن لك من مركز أو حق يبيع
لك اسكلام فى هذا المجلس . نعم لست أنت الذى يذكركنا به .
إذهب فقل لمرسليك إننا هنا بإرادة الشعب ، فلن نبرح مكاننا
إلا على أسنة الحرب »

وتصاحب النواب قائلين : « هذه إرادة الشعب » . « الشعب
لا يتلقى أوامر من أحد » ، وقام سيس يذكركم أنهم اليوم
ما كانوا بالأمر ؛ ولم يخن ميرابو حضور ذهنه وسط تلك الحماسة ،
فأعلنت الجمعية اقتراحه بأن رجالها منذ اليوم فى حصانة ، وأن
العمدى عليهم جريمة كبرى !

أرأيت كيف هيأت بسالة ذلك الرجل له موقفا أصبح فيه
بحيث يتوقف مصير الحوادث على ما يفعل أو يقول ؟ وسرعان
ما تجاوبت أنحاء فرنسا أبناء ذلك الرد التاريخى ، وجرى اسم
ميرابو على كل لسان فى باريس وطبع شخصه فى كل قلب

من ذلك اليوم أصبح ميرابو زعيم الشعب غير مدافع ، وإن
تم له ذلك فعلا من قبل ، وإذا كانت الحوادث تخلى الرجال كما
يقولون ، فن الرجال من يخلى التاريخ . وما تاريخ البشرية إذا
أردت اليقين إلا تاريخ عظامها . ولقد كان ميرابو من هؤلاء
النفر الذين يربون جيلا لبلدوا غيره ! وانى لأجرؤ فأزعم أنه
عندى أول زعيم شعبى بالمعنى الحديث . إذ كان التاريخ يومئذ
ينتقل من فصل إلى فصل كما رأينا

وكان انتقاله هذه المرة على أساس جديد ، على أساس شعور
الفرد بوجوده فى شكل ديمقراطى لم ير العالم نظيره منذ ديموقراطية
أثينا . أجل ، لقد جاءت الأنباء من وراء المحيط بانتصار الحرية
على يد بطل من أهم أبطالها هو واشنطن ؛ ولكن الفرق بين
الحركتين كالفرق بين الرجلين ؛ فتلك حركة سياسية فى شعب
يخوض غمار الحرب إلى حقه الذى اغتصبه الأجانب من
أعدائه ، وهذه حركة اجتماعية كانت أول أمرها سلمية فى
شعب يستخلص حقه من ساداته وكيرائه ؛ وذلك رجل يشهر
السيف ويصل إلى غرضه بالحديد والدم ، وهذا رجل لا يعرف
إلا القلم ولا يرى سوى المنبر طريقا إلى غرضه !

الخفيف

(البقية فى العدد القادم)